مكتبة الأطفال العربية

بعض الاعتبارات الشخصية والملاحظات التوجيهية

للأستاذ كامل كيلاني

زعموا أن ثلاثة أمراء إخوة أشقاء ، خرجوا يتنافسون فى مهر بنت عمهم السلطان ، بعد أن تواعدوا على الاجتماع آخر العام فى مكان بعينه ليروا : أيهم ظفر بأنفس هدية للأميرة . فلما التقوا رأوا أحدهم قد ظفر بمنظار سحرى يرى فيه الناظر كل مايدور بخلده ، ولو كان فى أقاصى الدنيا . وظفر ثانيهم ببساط سحرى يحمل راكبه محلقاً به فى كل جو من الأجواء فيبلغه غايته فى لحظات يسيرة . وظفر ثالثهم بتفاحة شافية تبرىء من السم وتعيد الحياة إلى من أشرف على التلف . ونظروا فى المنظار فإذا الأميرة على فراش الموت تحتضر . فأسرعوا إلى البساط ، فإذا بهم عندها فى الحال . وأدنوا التفاحة منها ، فشفيت على الفور . وحاولوا أن يعرفوا : أيهم صاحب الفضل فى شفائها فلم يهتدوا إليه . فلولا المنظار لما عرفوا مرضها الخطير ، ولولا البساط لهلكت قبل أن يصلوا إليها ، ولولا التفاحة الشافية لما كان لوصولهم فائدة . فإذا نقصت واحدة من هدايا الأسطورة ضاع كل أمل فى شفاء الأميرة.

ولعل فى هذه القصة مثلا دقيقاً يوضح ما يجب على من يتصدى للكتابة للأطفال أن يهدف إليه ويجعله نصب عينيه وحفل أذنيه

* * *

إن تحبيب الكتاب إلى نفس الطفل هو أول الوسائل لتمكينه من القراءة . ومتى ظفر بهذه الغاية ظفر بالمنظار السحرى الذى يرى صاحبه كل ما يريد أن يراه . أما الأسلوب القصصى الساحر فهو بساط الريح الذى يتنقل بالقارىء إلى أبعد الآفاق الفكرية فى لحظات يسيرة ، ويطير به على أجنحة الخيال البديع محلقاً به فى سماء الحقائق ، دون أن يلحق به كلالا ولا جهداً . أما التفاحة الشافية فتتمثل فيما تتركه القراءة النافعة من آثار نفسية دائمة ، تشفى سموم الجهالة وتبرىء من النزعات العارمة التى تعجل بصاحبها إلى الهلاك وتقذف به إلى الهاوية . ولنقف عند أول هذه الأهداف الجليلة لحظة قصيرة ، فما تتسع هذه الوجازة الخاطفة لغيرها لنقف عند الخطوة الأولى ، وهى تحبيب القراءة إلى الطفل ، وتمكين الفصحى من نفسه ، وحمايته مما كان يغمرنا من البيان المشوه المضطرب ، وتجنيبه ذلك الشر المستطير من سيل العامية الجارف الذى كان يغرقنا فى مستهل نشأتنا الثقافية ، ولا يزال يغمر الكثيرين من ناشئة اليوم ورجال الغد ، فيقضى على مواهبهم البيانية — أو يكاد — فى زمن حداثتهم . ولنعد لهم بياناً عربياً خالصاً يطبع الطفل على الفصحى منذ طفولته الباكرة ، حتى إذا كبرت سنه صارت له الفصحى — كما كانت لغيره من أسلافه العرب فى عصور القوة الأولى — سليقة وطبعاً ، وأصبح البيان العربى متأصلا فى نفسه عادة وملكة . ويرىء من المجمة المتفشية بين شباب العصر وفتياته .

* * *

أما السبيل إلى هذا الحلم الجميل ، فتحقيقها ميسور غير مستحيل .

إننا إذا راقبنا كلام الطفل وهو فى مستهل طفولته ، رأيناه يلجأ — كما قلت فى بعض المناسبات منذ عشرين عاماً — إلى تكرار الجمل إذا قص علينا خبراً ، كأنما يتثبت من معانيها فى ألفاظها المكررة . فلماذا لا نكتب له وهو فى هذه السن محاكين أسلوبه الطبيعى فى تكرار الجمل والألفاظ لتثبت المعانى فى ذهنه تثبيتاً ؟ ولماذا لا نكرر له الجمل برشاقة ليسهل عليه قراءتها ذلك أجدر بنا وأليق فإن لكل مقام مقالا .

ومن الحقائق المعروفة أن الطفل — فى هذه المرحلة — ملول يتهيب الكتاب ، فلننزع من نفسه هذا الملل ، ولنحبب إليه الكتاب بكل وسيلة ، ولنبسط له الأسلوب تبسيطاً مكثرين من الصور الجذابة الشائقة التى تسترعى انتباهه ، لنشعره أن الكتاب تحفة تهدى إليه إهداء ، وليس واجباً يكلفه تكليفاً . فإن الطفل — إذا ساء ظنه بالكتاب — صعب اجتذابه إليه بعد هذا .

وقد وفق أكثر من تصدوا لتأليف كتب الأطفال توفيقاً عجيباً فى تبغيض القراءة إلى نفوسهم وتنفيرهم من المطالعة ، فأصبحوا يمقتون الكتاب أشد المقت ، ويهربون من قراءته ، لأن المؤلفين لم يراعوا سن الطفل وميوله ورغباته . ولم ينزلوا أو هم

— على الحقيقة — عجزوا عن النزول إلى مستواه ، ومخاطبته باللغة التي يفهمها وترتاح إليها نفسه . ومن الإنصاف أن نقرر — بصراحة — أنهم لم يضعوا كتبهم على نسق خاص أو منهج معين ، وأنهم في تأليفهم لم يتشبعوا بفكرة فنية تنتظم الكتاب وتؤلف بين أجزائه . لأنهم يقنعون بتصيد موضوعات الكتاب — كيفما اتفق لهم أن يتصيدوها — فيخرج الكتاب خليطاً مضطرباً لا تؤلف بين أجزائه فكرة بعينها ولا يتناسب أسلوبه مع مدارك الأطفال .

***

إن الطفل ميال بطبعه — إلى الحكايات والقصص ، وهو — بغريزته — مفتون برؤية الصور الجذابة فلنختر له منها ما يناسب سنه ، ويتفق وميوله ورغباته وتفكيره . أما الفكرة التي انتظمت مكتبة الأطفال فهي « التكرار » يكثر في أولها ثم يقل شيئاً فشيئاً — كلما تقدم الطفل في القراءة حتى يصل إلى قراءة الأسلوب الموجز الذي لا تكرار فيه بلا مشقة ولا إعنات .

وقد تدرجت بالطفل في هذه المكتبة حتى يكون آخر جزء من كل مجموعة ممهداً لقراءة أول جزء من أجزاء المجموعة الأخرى. فإذا أتم هذه المكتبة اسلمته إلى مكتبة الشباب ، وكانت له جسراً يسهل العبور إلى ما تحويه من كتب الأدب ودواوين العرب في سهولة ويسر .

وإنما عمدت في الأجزاء الأولى من مكتبة الأطفال إلى التكرار عمداً بعد أن أقنعتني التجارب العملية والاختبارات الشخصية أنه أصلح أسلوب يلائم الطفل الناشيء ويشجعه على القراءة . ولا غرو في ذلك فإن الطفل الناشيء لا يقرأ الكلمة إلا بجهد كبير . ولا يتم السطر إلا بشق النفس . فلنقتصد جهدنا في استعمال الألفاظ الجديدة . ولنؤلف من الألفاظ القليلة التي يقرؤها الكبير في بضعة أسطر — عدة صفحات كاملة لندخل في روعه أن القراءة ليست صعبة كما يتوهم ، وليست شاقة مضنية ، كما ألفها في الكتب الأخرى ، بل هي سهلة ميسورة ، وهي — إلى سهولها ويسرها — ممتعة شائقة ، تملأ نفسه بهجة وانشراحاً ، وتمده بشعور الطفل بثقة في نفسه إذ يرى أنه يقرأ صفحة كاملة بجهد يسير ، فهو لن يتم قراءة السطر الأول حتى يسهل عليه قراءة السطر الثاني والثالث والرابع وهكذا ، لأن الألفاظ لا تكاد تتغير في الجمل إلا بمقدار يسير .

***

وقد جعلت نصب عيني قصة الرجل الذي كان يحمل الثور صاعداً به درج سلم عال وهابطاً به دركه ، دون أن يبدو عليه شيء من آثار التعب والجهد . فلما سئل في هذا قال: لقد تعودت حمل الثور منذ ولادته كل صباح وما زلت أكبر ويكبر الثور معي ويزداد نمونا كل يوم زيادة قليلة مضطردة ، حتى اكتمل نماؤنا . ولم أشعر أن وزن الثور قد زاد يوماً عما كان في سابقه ولم أحس له ثقلا إلى اليوم .

***

كانت هذه القصة نواة صالحة لمكتبة الأطفال . فبدأتها بتسلية الطفل متدرجاً به تدرجاً بطيئاً لا يكاد يشعر به ولا يحس له أثراً ، مستعيناً على هذا الغرض بالصور الملونة الجذابة والشكل الكامل والألفاظ السهلة . حتى إذا اطمأن الطفل إلى الأسلوب السهل ، وامتلأت نفسه ثقة بقدرته على القراءة ، انتقلت به إلى المرحلة التالية ، فزجت له التسلية بالفائدة ثم لا أزال أنتقل به خطوة بعد خطوة حتى يرى في فنون المعرفة وحدها متعة وتسلية ، لا يعدلها شيء من فنون المتع وضروب التسلية . ولم أقصر في تحبيب الفصحى إليه وتعويده النطق بالصحيح من الألفاظ ، وتدريبه على الأخذ بالصحيح من الآراء ، فإن الخطأ اللفظي كالخطأ المعنوي إذا انطبع أحدهما أو كلاهما في ذهن الطفل منذ القراءة الأولى صعب اقتلاعه ، في قابل أيامه . ولا ممدى لنا عن ترغيبه — بكل ما نملك من الوسائل — في الأسلوب الرائع والمثل الصالح جميعاً . فلا نتسمح قط في عبارة واحدة تقلل من شأن لغته ، أو تصغر من جلال القيم الأخلاقية .

***

إن تحبيب الكتاب وتخير الأسلوب الصالح وتثبيت الفضائل في نفس الطفل ، هي الأهداف الثلاثة التي ترمي إليها مكتبة الأطفال ولابد من اجتماعها لبلوغ الغاية المرجوة ، كما اجتمعت هدايا الأمراء الثلاثة لشفاء الأميرة . فإذا نقص واحد منها تهدم البنيان كله ، وذهبت جهودنا على غير طائل . وهذه هي الحوافز